تقويم الفكر الاستشراقي أو الفكر الاستشراقي في ميزان النقد العلمي

بقلم د/محمد الدســـــوقي

ينسحب مفهوم الفكر الاستشراقي على كل فكر غربي ، أو شرقي غير إســـلامي عرض لتراث الشرق الديني والحضاري ـــ وبخاصة الشرق الإسلامي ـــ بالدراسة والبحث.

ويعد هذا الفكر ظاهرة فريدة لم تعرف البشرية نظيرا لها في تاريخها الطويل ، فلم يعهد أن توافر عدد من الباحثين على مدى عدة قرون ، فاختلفوا عقيدة ولسانا و جنســـية و وطنا على دراسة دين لا يؤمنون به كما فعل المستشرقون ، كذلك لم يعهـــد أن مثل هؤلاء الباحثين على الرغم مما بينهم من اختلافات في العقيدة واللغة والوطن قد التقوا حول هدف واحد غالبا، وكرسوا كل طاقاتهم وإمكاناتهم لبلوغ هذا الهدف.

وبـــدأ العـــالم الإسلامي يتنبه لخطر هذا الفكر عليه منذ نحو قرن ، ومن ثم صدرت عنه دراسات ومؤلفات عديدة، ولا سيما في العقود الثلاثة الأخيرة ، كما عقدت أكثر من ندوة تناولت الفكر الاستشراقي من حيث دوافعه وغاياته و مجالاته وآثاره العلمية.

وعكـــس كل ما صدر عن هذا الفكر تفاوت آراء الباحثين في الحكم عليه، ويمكن أن تنقسم هذه الآراء إلى ثلاثة أقسام :

أولا : قسم أفرط في الثناء على الفكر الاستشراقي ونعته بالمنهجية والدقة العلمية، والقيام بخدمات جليلة للفكر الإسلامي.

ثانيا : قسم رفض الفكر الاستشراقي ، لأنه في كل ما صدر عنه لا يعرف الإنصاف ، ولا يتغيا معرفة الحقيقة في موضوعية ، ومن ثم كان في جوهره ومجمله فكرا عدوانيا باغيا .

ثالثا : قسم اتسم بالوسطية وعدم الإفراط في المدح أو القدح، فهو يذكر ما للاستشراق من حسنات وسيئات دون غمط لحق ، أو تجاهل لخلط في الرأي أو فساد فيه .

أما الذين أفرطوا في الثناء على الفكر الاستشراقي ، وذهبوا إلى أنه أحسن أكثر مما أساء ، وأفاد أكثر مما أضر فإنهم يكادون يجمعون على أن فضل المستشرقين يتمثل في أمرين :

(أ) نشر المخطوطات وفهرستها .

(ب) توجيه الفكر الإسلامي إلى الأخذ بالمنهج العلمي في البحث والدراسة[1].

لقد قام المستشرقون بنشر الكثير من نفائس التراث الإسلامي نشرا علميا يسر لنا الانتفاع بهذا التراث، وهذا فضل للاستشراق لا يمكن غض الطرف عنه مهما تكن بواعث المستشرقين في ذلك . وهذا النشر للمخطوطات الإسلامية من جهة أخرى زاد من ثروتنا العلمية المطبوعة وهذه الثروة كانت من أهم عوامل اليقظة الفكرية المعاصرة .

قال الأستاذ محمد كرد علي ، في محاضرة له عن أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية وعن نشر المخطوطات العربية على أيدي المستشرقين

بأنه جهد عظيم ، وأنهم بما نشروا من كتبنا أسدوا إلى لغتنا المحبوبة خدمات أياديهم البيضـــاء، وعلمونا بما أحيوه دروسا في تاريخ أمتنا ومدنية أجدادنا من أن أعمالهم هـــذه وصلتنا بالعرض ، إذ لم يكن علماء المشرقيات ومجامعهم يقصدون خدمتنا ، بل خدمة العلم أو الأفكار التي يريدون بثها ، ليتخذ بعضهم من كتب أسلافنا مادة تنفعهم في موضوع قد يرون غير رأينا فيه، ولكن مهما كانت النيات فقد استفادت العـــرب والعربية من هذه المهمة التي انبعثت من ديار الغرب ، ولذلك تقضي علينا أخلاقنا أن نعرف الفضل لصاحبه[2].

ثم يقـــول بعـــد أن سرد طائفة من أسماء الكتب التي نشرها الاستشراق في أوروبا وأمريكا وروسيا : وكل ما طبعه أولئك الأعلام ينم عن صبر طبيعي فيهم ، ودأب غريـــب ، وأمانـــة يصـــفق لها، وتحر للحق وتحرج من التلفيق ، حتى غدت مطـــبوعاتهم ـــ إلا ما ندر منها ـــ مثال النظر البليغ والطبع الجميل، وأكبر معوان على المراجعة والمطالعة ، والانتفاع بالكتاب حق الانتفاع .. وأثنى على المستشرقين لمـــا يـــبذلونه من جهد فائق في التحقيق والتوثيق والتمحيص ، ومن ثم يأتي عملهم ســـليما من الشوائب في الجملة ، وإذا كان لبعضهم أخطاء في هذا المجال فإننا على عربيتـــنا نرتكب في تحقيق كتبنا أغلاطا فظيعة ، والاستشراق إلى جانب قيامه بنشر المـــئات مـــن المؤلفات الإسلامية قدم لنا دراسات علمية عن تراثنا تناولت تاريخه وتطوره وتأثيره وتأثره[3].

جاء في تمهيد الجزء الأول من كتاب "المنتقى من دراسات المستشرقين": إن المستشرقين طرقوا كل ناحية من نواحي ثقافتنا ، وعالجوا كل أمر ذي شأن في ديننا وحضارتنا متبعين في دراستهم وأبحاثهم طرق البحث المنهجي المنظم، ولقد أتيح لهم أن يكونوا أحيانا كثيرة أكثر احاطة بالمصادر ، وأبصر بمواضع النقد[4].

و لم يقتصـــر جهد الاستشراق على النشر والدراسة ، وإنما تجاوز هذا إلى وضـــع الفهارس المختلفة التي كشفت عن آلاف المخطوطات التي توزعتها مكتبات العـــالم ، فعرفنا عن تراثنا ما كنا نجهل ، وسعينا لجمع ما يمكن جمعه منه عن طريق التصـــوير ونحـــوه . كذلـــك وضعت الفهارس المتنوعة لموضوعات وألفاظ القرآن الكريم، وأمهات كتب الحديث وبعض المصادر من كتب اللغة والتاريخ والأدب مما أتاح لنا الوقوف في يسر على أحكام الكتاب العزيز ، ومعرفة الحديث ومن خرجه مـــن علماء السنة ، مع استقراء النصوص التي تتعلق بموضوع واحد فيتوافر لدرسه بذلـــك عنصر الدقة والشمول ، ومن ثم ينتهي الباحث إلى نتائج علمية لا يعتريها القصور أو الإضراب.

و أمـــا توجـــيه الفكر الإسلامي إلى الأخذ بالمنهج العلمي في البحث فإن نشـــاط الاستشراق اتسم بالدأب والصبر والتنقيب والتعويل على المصادر الأصلية، ولهـــذا غلـــب الطابع الأكاديمي على دراسات المستشرقين، ومن ثم سبقونا في مجال خدمـــة تراثـــنا، ووصلوا إلى ما لم نصل إليه من الآراء والنتائج العلمية حول هذا التراث ، وما ذلك إلا لاعتماد الاستشراق على أساليب البحث العلمي المنظم.

ويذهـــب الدكتور طه حسين في مقدمة كتابه "في الأدب الجاهلي" إلى أن أبحـــاث المستشرقين أبحاث علمية قيمة . وأن كل دارس لتراث الشرق لا يمكنه أن يقـــدم عملا علميا مفيدا ، ما لم يقف على النتائج العلمية لأبحاث المستشرقين، فهم أهـــل العـــلم ، ولا يلتمس العلم إلا عندهم ، قال : "وكيف نتصور أستاذا للأدب العربي لا يلم ولا ينتظر أن يلم بما انتهى إليه الفرنج (المستشرقون) من النتائج العلمية المختـــلفة حين درسوا تاريخ الشرق وأدبه ولغاته المختلفة، وإنما يلتمس العلم الآن عـــند هـــؤلاء الناس، ولابد من التماسه عندهم حتى يتاح لنا نحن أن ننهض على

أقدامـــنا ونطـــير بأجنحتنا ، ونسترد ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وآدابنا وتاريخنا[5]".

ويعـــترف الدكتور زكي مبارك بأن للمستشرقين أخطاءهم في فهم التراث وبعـــض هذه الأخطاء مضحكة، كما أن لهم آراءهم الفاسدة في الإسلام وتعاليمه، وهي آراء تخدم بعض الهيئات الدينية، ولكنهم مع هذا خدموا الإسلام بخصومتهم له أجل الخدمات، فقد عمدوا إلى القرآن والحديث فطبعوا كل ما يتصل بهما من جيد المؤلفات، وفهرسوها وبوّبوها ورتبوها. والمستشرقون في هذا سبقونا إلى الدراسات الأدبـــية والإسلامية بنحو ثلاثة قرون والباحث الجاد في مصر والشرق لا يستطيع الفرار من بحوثهم التي تطالعه من كل جانب[6].

ثم يقـــول الدكـــتور مـــبارك: ولـــيس لدي ما يمنع من الاعتراف بأن أثر المستشـــرقين أبقـــى في ذهني وأوضح، وأن فضلهم علي أظهر وأرجح، ويستطرد فينصـــح الأمـــة بتأثر خطوات المستشرقين في غير زيغ و لا ظلال ، و يختم رأيه في الاستشراق بقوله: وبعد فأنا لا أهون من أغلاط المستشرقين ولا أدعوا إلى متابعتهم في غـــير بصيرة ولا روية ولكني أجزم بأن أعمالهم أدخلت كثيرا من عناصر الحيوية في الدراســـات اللغوية والإسلامية وليس في الدنيا شر خالص ولا خير خالص، وإنما الـــنفع في أعمـــال هؤلاء الباحثين أقوى وأغلب[7] فالدكتور زكي مبارك يكاد مع اعـــترافه بأخطـــاء الاستشراق وأنه طليعة الاحتلال، وله من الإسلام مواقف سيئة يحصـــر نفعه وفضله في نشر الكثير من التراث الإسلامي الذي انتفعنا به بلا مراء، وكذلـــك في المنهج ا لعلمي في البحث، وأننا أخذنا بهذا المنهج عنه، وحاولنا به أن نجـــدد مـــن دراساتنا ونطور حياتنا العلمية، وأن هذا الجانب يطغى على الجوانب السيئة في أعمال الاستشراق، وأن علينا أن نتابعه فيه فهو أقوى وأغلب من سواه.

وإذا كان الاستشراق قد أراد بما أثاره من آراء فاسدة تشويه الإسلام وتراثه الحضـــاري فـــإن الذين يمدحون الاستشراق ويذهبون إلى أن نفعه أكثر من ضرره، وخـــيره أكثر من شره يقولون بأن تلك الآراء الفاسدة كان لها دور إيجابي في الفكر الإسلامي لأنها دفعت كثيرا من علماء المسلمين إلى الذب عن دينهم. وبيان بطلان مـــا يتردد في دوائر المستشرقين من أفكار حول الإسلام والمؤمنين به، وقد نجم عن هـــذا يقظة فكرية إسلامية واجهت الشبهات والافتراضات في قوة، وهذا يعني أن الجانـــب ا لسلبي في الفكر الاستشراقي أثمر إيجابية في الفكر الإسلامي المعاصر، فقد هـــب العـــلماء المفكرون يذودون عن قيمهم، ويدعون إلى الاعتصام بها، ويبينون خصائصـــها، ومـــا تمتاز به عن سواها، وأن الذين يهاجمونها أو يعتدون عليها إما جهـــلاء أو متعصـــبون حـــاقدون لا يريدون لنور الحق، أن يبدد ظلمات الباطل والفساد، فالاستشراق من ثم أفاد الفكر الإسلامي من حيث لا يحتسب.

هـــذا بوجه عام وفي إيجاز وإجمال ما يراه الذين يذهبون إلى أن الاستشراق أفـــاد وأحســـن، وأن فضله على تراثنا ونهضتنا أمر لا ينبغي المراء فيه، وأنه حتى في أخطائه كان مصدر خير للفكر الإسلامي.

ولكـــن الذين يرون أن الاستشراق لم يحسن، بل أساء إلينا أبلغ إساءة وأن المستشرقين على اختلاف لغاتهم وجنسياتهم يعملون وفق تخطيط مدروس يستهدف إضـــعاف القـــوة الإســـلامية في شـــتى المجالات ـــ هؤلاء الذين يرفضون الفكر الاستشـــراقي، ويناصـــبونه الحرب ينطلقون في موقفهم من هذا الفكر من عوامل نشـــأته، وتطـــور تاريخـــه، ومـــا صدر عنه من آراء ودراسات، وما قام به بعض المستشرقين من أعمال التجسس لصالح أعداء المسلمين، ويعترفون بأن موضوعية فئة قليلة من المستشرقين لا تعني أن القاعدة الأساسية للنشاط الاستشراقي، وهي العمل

عـــلى تقويـــض الوجـــود الإسلامي غير راسخة الدعائم، وأنها المحرك الأول لذلك النشاط منذ بدأ وحتى الآن.

وهـــؤلاء الذين لا يرون للاستشراق نفعا ينقضون دعوى الذين أفرطوا في الثـــناء عليه ويسوقون الشواهد الكثيرة التي تؤكد أن الفكر الاستشراقي أساء إلينا ومـــازال يسيء وسأذكر أولا نقضهم لآراء الذين يحكمون على الاستشراق بالجدة والمنهجية العلمية والفائدة، ثم أقفي عليه بأدلتهم التي تدمغه بالعدوانية.

أمـــا في مـــا يـــتعلق بنشـــر التراث وفهرسته والعناية به فإن ما يعزى إلى الاستشراق من جهد في هذا المجال أمر مبالغ فيه من حيث الكم فلا يكاد يتجاوز ما قـــام المستشرقون بطبعه من تراثنا إلا نحو عشرة[8] بالمائة من جملة ما نشر من هذا الـــتراث، ولـــيس المهم مقدار ما نشره الاستشراق من تراثنا ، وهل كان قليلا أو كـــثيرا، و هـــل كـــان أيضا في نشره دقيقا أمينا يعي خصائص العربية، ويفقه سر بلاغتها، وإنما المهم أن نتعرف على سبب الاهتمام بهذا التراث، ونقله خارج ديارنا بوســـائل مخـــتلفة منها السرقة، ففي الوقوف على هذا السبب بيان للغاية من هذا النشر، وهل كانت علمية أو غير علمية ؟

لقـــد سئل المفكر الجزائري المعاصر مالك بن نبي عن سبب نقل تراثنا إلى الغرب فأجاب بأن نقل تراث المسلمين إلى الغرب في الماضي كان لتعديل ثقافي، ثم استغله في العصر الحديث لتعديل سياسي[9]، وهو يقصد بهذا أن الغرب كان يعيش قبل اتصاله بالحضارة الإسلامية على فتات علوم الإغريق ، وأن علوم المسلمين هي الـــتي أخرجـــت الغرب من دياجير العصور الوسطى، ويعترف بهذا الفضل بعض الأوروبيين ويرون أن أوروبا كان من المستحيل أن يكون لها شأن يذكر لولا وجود المعارف العربية[10].

فالـــتراث الإســـلامي ـــ وينســـحب مفهومه على كل ما أخذه الغرب عن المسلمين سواء عن طريق الدرس أو الترجمة، أو نقل المخطوطات والمؤلفات ـــ هو الـــذي غير مسيرة الحضارة الأوروبية، فقد وضعها في أول طريق النهضة، وزودها بـــأدوات الـــنجاح في الوصول إلى المنجزات الحضارية، وبذلك يمكن القول دون إســـراف أو مـــبالغة: أنه من القرن السادس الميلادي إلى القرن العشرين لم ينشأ في العـــالم أثر جديد لا يرجع إلى الحضارة الإسلامية، بسبب قريب أو بعيد، فالحضارة الأوربية المعاصرة ترجع إلى عصر النهضة، وهذا العصر يرجع إلى ثقافة المسلمين في الأندلـــس وجزر البحر المتوسط، وإلى ما عاد به الصليبيون من الديار الإسلامية بعد أن عاشـــوا فـــيها نحو مائتي عام، فلا غرو أن كان للفكر الإسلامي دور الريادة في توجـــيه الفكـــر العـــالمي وجهة صالحة كان لها أعظم النتائج في تاريخ العالم قديمه وحديـــثه، وإحدى هذه النتائج التي لا شك فيها كشف القارة الأمريكية[11] هذه الحقـــيقة -حقـــيقة أثـــر الـــتراث الإسلامي في الفكر العالمي ـــ يحاول كثير من المستشرقين أو جمهورهم التشكيك فيها، فهم يزعمون بأن المسلمين ليس لهم فضل عـــلى العـــالم، وأن حضارتهم عالة على الحضارات القديمة وأنهم مجرد نقله لتراث غيرهم، فليس لهم ابتكار ولا تطوير[12].

ومـــن المستشرقين من آثر الصمت إزاء ما قدمه الفكر الإسلامي من أياد بيضاء للحضارة الإنسانية وكان همهم وبخاصة في القرن التاسع عشر الذي يعد أعتى عصـــور الاستشراق ـــ تجاهل فضل المسلمين الحضاري وإلقاء ظلال النسيان على دورهـــم الإبداعي في صنع التقدم والرقي[13] وهذا الموقف من الاستشراق، موقف الإنكـــار والجحود والتجاهل هو الذي عناه المفكر الجزائري بالتعديل السياسي، أي أن التراث الإسلامي بعد أن أدى رسالته في تطوير أوروبا ونقلها من حياة الهمجية

والـــبربرية إلى حياة التقدم والحضارة أصبح في أيدي غير المسلمين وسيلة لمنع تقدم المســـلمين، لأنهـــم يخافون من هذا التقدم، ولا يريدون له أن يكون على نحو يهدد مصالحهم، وبسط نفوذهم، وحماية أصدقائهم من اليهود و أضرابهم.

فـــإذا كان المستشرقون يعكفون على تراثنا لتحقيقه ونشره فهل يبغون من وراء ذلـــك أن ينتفعوا بما ينتشرون في تنمية ثقافتهم القومية، وهم على بينة من أن المـــثقفين في بلادهـــم لا يقرأون هذا التراث بعد نشره لعدم معرفتهم بلغته أم أنهم يـــريدون أن يقدمـــوا لـــنا تراثنا منشورا مفهرسا محققا، حتى نستعين به في نهضتنا وتقدمنا ؟ إنهم لم ينفقوا الأموال على التحقيق والنشر ليسهموا بهذا في تنمية ثقافتهم القومية، كما أنهم لم يفعلوا هذا مساعدة لنا في المحافظة على تراثنا و الانتفاع به في تطوير حياتنا فهذا أمر لا يعنيهم. ولذلك كان نشر تراثنا لغاية أبعد من هذا وذاك، كان وسيلة لدراسة نفسية الشعوب الإسلامية حتى يكون تخطيط الفكر الاستشراقي في موقفـــه مـــن هـــذه الشعوب قائما على أسس علمية تحقق ما تصبو إليه آمال المستشرقين ودولهم في الإحاطة بوسائل الإخضاع والسيطرة.

إن الهـــدف الأول مـــن نشر التراث هو معرفة جوانب القوة للقضاء عليها وجوانـــب الضعف لتعميقها [14]، ليظل النفوذ الغربي طاغيا علينا ولتمتلئ طرقات العودة إلى الإسلام الصحيح بالأشواك الدامية التي تحول دون اعتصام المسلمين الجاد بديـــنهم، فهـــم بغير هذا الدين لن يقدروا على أن يقفوا في وجه احتلال مادي أو معـــنوي، وهـــذا غاية الغايات للفكر الاستشراقي والسياسة الاستعمارية، ومن هنا عرف بعض المعاصرين الاستشراق بأنه استخدام العلم في خدمة السياسة[15].

ومـــن أوضـــح الدلائل على أن الاستشراق لا يريد من وراء نشر التراث الإســـلامي غاية علمية، وإنما يسعى لمهمة تنصيرية ، أن معظم ما اصطفاه من هذا

الـــتراث يعكس الاضطراب الفكري والسياسي بين المسلمين، ولذلك يهتم بكتب الفـــرق والصراعات السياسية والمذهبية، ليقف على الظروف التي واكبت نشأتها، والعوامـــل التي ساعدت على نموها وتفاقم مشكلاتها، حتى يهيء لها ما يجعلها حية مـــتأججة الأوار، تشغل الأمة، وتستهلك قواها وتستحوذ على فكر علمائها، ولب قادتها، فتضرب بينهم الفرقة ويسود حياتهم الخلاف والشقاق[16].

فالاستشـــراق في مجـــال النشـــر اهتم بالجوانب السلبية في تراثنا أكثر من اهـــتمامه بالجوانب الإيجابية، كما أنه في منهج التحقيق لم يكن علميا، ففضلا عن أخطـــاء الفهـــم كانت هناك التحريفات والتعليقات التي تعبر عن التعصب والاتهام للإســـلام ولغـــته، كمـــا تعبر عن خدمة الأهواء السياسية والأطماع الاستعمارية، والتوجهات التنصيرية.

ويتصـــل بمجال التحقيق وضع الفهارس، وبخاصة ما جاء منها عن القرآن الكـــريم، وأمهات كتب السنة، والاستشراق لم يقم بوضع هذه الفهارس إلا ليهيء لنفســـه وســـائل جمع المادة العلمية التي يتظاهر بها دارسا جادا موضوعيا يستقرئ المســـائل في دقـــة وشمول، كما أن هذا الجهد في وضع الفهارس ـــ وهو عمل في ظاهـــرة يحمد للاستشراق ويدل على مبلغ ما بذل من وقت ومال ـــ يعطي انطباعا لـــدى جمهـــور المثقفين المسلمين بأن المستشرقين علماء مخلصون، وأنهم فعلوا ما لم نفعله، وخدموا تراثنا بما لم نستطع أن نخدمه به، وهكذا يكون ذلك الجهد كجواز مـــرور لكـــل مـــا يصدر عن المستشرقين من آراء فتلقى القبول والاستحسان، بل والتفضـــيل عـــلى سواها، والنظرة إلى من يحمل عليها نظرة نفور وازدراء، وجملة القـــول أن الاستشراق في ميدان التحقيق والفهرسة والنشر كان يعمل وفق سياسته الـــتي تـــدرج عليها منذ نشأته، و لم يقدم لنا من تراثنا ما يساعد على النهوض من

كـــبوة التخلف، وإنما قدم ما يمكن بيننا أسباب التمزق والضعف والتبعية، ويحقق له مآربه في الهيمنة الفكرية و السياسية.

ويحـــتج بعض الذين يمدحون ما قام به الاستشراق من تحقيق ونشر بما قالته الدكـــتورة عائشـــة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) في محاضرة لها عن تراثنا الثقافي بين أيـــدي المستشـــرقين، قلت: "إننا ندين لهم ، أي للمستشرقين، بجمع ذلك التراث وصـــونه مـــن الضـــياع و تسألون و ماذا لو تركوا تراثنا لنا ، أما كنا أهلا لجمعه وصـــونه ؟ فأجيـــبكم بملء يقيني كلا، كنا في غفلة عنه لا نكاد نحس وجوده، أو نعرف قيمته، أو نقدر حاجتنا إليه ..خدام دور العبادة يبيعون نفائسه بالكوم لتجار الحلـــوى والـــبقول ...ولم يقف جهد المستشرقين في الجمع على مجرد الاقتناء، بل فهرسوا ما جمعوا من تراثنا فهرسة علمية، ومن ثم انتقلوا إلى نشر ذلك التراث نشرا يعـــتمد عـــلى أدق منهج للتوثيق والتحقيق و صحونا من نومنا فإذا ألوف الذخائر العربـــية بين أيدينا محررة موثقة ، نلوذ بها في دراستنا العالية، ونعد الرجوع إليها في أبحاثـــنا المتخصصـــة مدعاة للفخر و المباهاة ، وبلغوا في دراساتهم للشرق والعربية والإســـلام خـــدا مذهلا من العمق والتخصص، فهل قصدوا بهذه العملية الضخمة المنظمة خدمة العرب والشرق والإسلام ؟ لقد استهدف الاستشراق في نشأته الأولى خدمـــة الكنيســـة والاستعمار، وما نشهد بين الفينة والفينة من التواء أساليبهم في توجـــيه العبارات واضطراب مناهجهم في سوق الأخبار واتسافهم في تأويلها، بغية اســـتخلاص نـــتائج سامة تمس ديننا وتاريخنا فما يجوز منا بعد اليوم أن نتخلى عن تـــراث غـــال ـــ نحن أهله وأصحابه ـــ لسوانا من الأجانب الغرباء الذين كثيرا ما تعوزهم النزاهة والإخلاص بقدر ما يعوزهم ذوق العربية وإدراك أسرارها في التعبير والأداء.(17)

فهـــل هـــذه الكـــلمة في صالح الذين يدافعون عن الاستشراق، أو أنها على العكس تقضي عليه بسوء النية، والضعف في اللغة العربية ؟

لقد قررت الدكتورة عائشة أولا حقيقة تاريخية، وهي أن المستشرقين نقلوا إلى بلادهـــم كثيرا من تراثنا وفهرسوه ، ثم نشروا بعضه، وألمحت أن ما نشر ألوف من الذخائر العربية، وفي هذا إسراف ومبالغة من حيث الكم، وتعميم من حيث أن كـــل ما نشر ذخائر، فكثير مما نشر لا يعد من مفاخر الفكر الإسلامي ولا ذخائره كما سبقت الإشارة إلى هذا.

والدكـــتورة تـــرى أن المستشرقين في تحقيقهم يعتمدون على أدق مناهج التوثيق بيد أنها بعد هذا تتساءل لماذا هذا الجهد الضخم المنظم في نشر تراثنا؟ وتجيب بـــأن الاستشـــراق لم يفعل ذلك خدمة للعرب والإسلام، إنه يخدم مصالح أخرى، مصـــالح العقـــيدة التي يدين بها، والأمة التي ينتمي إليها، وهو من أجل هذا يفسر النصوص في تعسف، ويوجه العبارات توجيها ملتويا يلتقي مع مصالحه، وينتهي إلى نـــتائج خطيرة وأحكام جائرة فهي من ثم سموم تفتك بتاريخنا وتعاليم ديننا، ثم تهيب بعـــلماء الإسلام أن يحموا تراثهم من الغرباء الذين تعوزهم النزاهة والإخلاص ودقة فهم اللغة، وفي هذا ما يتعارض مع ما ذهبت إليه من أن المستشرقين يعتمدون على أدق مناهج التحقيق، فالمنهج الذي لا يعرف النزاهة ولا الإخلاص لا يكون منهجا علميا، وإنما يكون أسلوبا من أساليب التضليل والإفساد... فهذه الكلمة حجة على الاستشراق وليست حجة له، ومن يستشهدون بها في مجال التنويه بدور المستشرقين في خدمة تراثنا يفهمونها على غير وجهها الصحيح.[18]

وأمـــا توجـــيه الفكـــر الإسلامي نحو الأخذ بالأسلوب العلمي في البحث والدراسة فإن في هذا ما يومىء أولا أن ذلك الفكر لم يعرف هذا المنهج، وأنه كان

في نشـــاطه العـــلمي يسعى على غير هدى حتى جاء الاستشراق فأرشده إلى اتباع المنهج القويم، فهو بذلك قد أسدى إليه يدا جليلة، وأنقذه مما كان قد تردى فيه من تقلـــيد واجترار. وهذا غير مُسَلّم به، فالفكر الإسلامي له منهجه الفريد في البحث والـــدرس والـــتراث العلمي للمسلمين في شتى المجالات خير شاهد على هذا، وما كانـــت أوروبا قبل عصر نهضتها وفي إبانه لترسل رسلها لنقل علومنا وترجمتها إلا لحاجـــتها لهـــذه العلوم، وإيمانها بأنها ذات منهج علمي ومضمون حضاري لم تعرفه البشـــرية مـــن قـــبل، وأنه لا سبيل أمام أوروبا لكي تخرج من ظلمات عصورها الوســـطى إلا بالتلمذة على فكر المسلمين وعلومهم. وإذا كان المنهج الإسلامي قد حـــل به الوهن في بعض مراحل التاريخ فإنه مع هذا ظل حيا وفاعلا، وبخاصة على أيدي طائفة من المجددين والمجتهدين. أولئك الذين حاولوا أن يعبدون للأمة تاريخها المشرق بالفكر العلمي والتطوير الحضاري.

على أن الفكر الاستشراقي في علاقته بالمسلمين مر بمرحلتين:

المرحلة الأولى: وهي التي كان فيها هذا الفكر موجها إلى الأوروبيين خاصـــة، وبدأت هذه المرحلة من بداية الاستشراق و إلى عصر الاستعمار المسلح. لقـــد دأب الفكر الاستشراقي في هذه المرحلة الطويلة على تقديم الإسلام في صورة مـــنفرة تـــثير الضيق به والتوجس منه، والرغبة في الهيمنة عليه، وذلك خوفا من أن ينتشـــر هذا الدين بين الأوروبيين، وهذا يعني أن المسلمين لم يكن لهم دراية بالفكر الاستشـــراقي على نحو يؤثر في أفكارهم وآرائهم وأسلوب بحثهم ودرسهم، وأما ما كان من جدل ـــ أحيانا ـــ بين بعض الرهبان وعلماء الأمة حول العقائد النصرانية والإســـلامية فقـــد كـــان في نطـــاق محدود، وكان لهؤلاء العلماء موقفهم العلمي

الموضوعي في إقامة البراهين الساطعة على فساد دعاوى الرهبان والقساوسة، وبيان أن حججهم التي يتذرعون بها في محاولات الانتصار لعقائدهم داحضة أو باطلة.[19]

إن المسلمين بوجه عام في تلك المرحلة لم يكن لهم اهتمام بما يجري من نشاط فكري بين المستشرقين والمبشرين، وما كانوا يعرفون عن مؤلفات هؤلاء وأولئك شيئا ذا بال، وكل ما يعرفونه عنهم أن بعضهم كان يرحل إلى بلاد الإسلام ليدرس علوم المسلمين ، وليحمل معه إلى وطنه ما يستطيع حمله من التراث الإسلامي، ولهذا كانوا في نظر جمهور المسلمين طلاب علم، ومن ثم عوملوا أكرم معاملة.

فلما غزت أوروبا العالم الإسلامي، وبسطت نفوذها عليه كله تقريبا وفرضت قوانينها ونظمها في التربية والقضاء والاجتماع لم يعد الفكر الاستشراقي موجها إلى الأوربيين وحدهم، وإنما أصبح موجها كذلك إلى المسلمين، بل إن هذا الفكر هو الذي رسم للاحتلال السياسة التعليمية والثقافية والاجتماعية، وأشرف عليها، وما كانت هذه السياسة تتغيا النهوض بالعالم الإسلامي حتى يستعيد مكانته وأمجاده، وإنما كانت تتغيا هدفا آخر، وهو أن يكون هذا العالم تابعا مقلدا للعالم الغربي يدور في فلكه، ويتطور في نطاق مصالحه، ومن ثم هنا بدأت المرحلة الثانية في علاقة المسلمين بالفكر الاستشراقي، وفي مستهل هذه المرحلة نشب الصراع الفكري بين طائفة من المسلمين وبعض المستشرقين، وظهرت كتابات منذ نحو قرن تحذر مما يخططه الاحتلال بوساطة الاستشراق والتنصير وإن جاءت في صورة ردود على هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا النيل من الإسلام وثقافته وصلاحيته للتطبيق الدائم، ولكن هذا الصراع وإن نبه إلى الخطر لم يحل دون بلوغ الغاية التي خطط لها الفكر الاستشراقي ، و تجلى ذلك في ميادين التربية و الثقافة فقد تخرجت أجيال في

ظـــل نظام تربوي له فلسفته المادية التي لا تلتقي مع فلسفة التربية الإسلامية، ونجم عـــن هـــذا ظهور ما يسمى بالثنائية الفكرية، وما تمخض عنها من تمزق ثقافي أتاح الفرصـــة لكل الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الوافدة أو الدخيلة أن تجد لها أنصارا يؤمنون بها ويدافعون عنها مما ضاعف من حدة الصراع بين التيارات المتناقضة في المجتمع الإسلامي، وتبديد طاقاته فيما لا يعود عليه إلا بمزيد من الضعف والتخلف والتبعية.

وكـــان ابـــتعاث الطلاب المسلمين إلى أوروبا للدراسة وخاصة العليا، وفي تخصصـــات إســـلامية خالصـــة يتيح للاستشراق توجيه هؤلاء الطلاب للقيام بعد عودتهـــم إلى أوطانهم بتبني الفكر الاستشراقي وإذاعته والتمكين له، حكى الدكتور عمـــر فـــروخ حينما كان يدرس في باريس قال: بعد أن حضرت في باريس سنة 1936م على ماسينيون ومارسيه، وليفي بروفنسال...وغيرهم، مدة وأردت العودة إلى ألمانيا لمتابعة دراستي الأساسية ودعت الأساتذة، فأراد مارسيه أن يحادثني قبل أن أغادر بناء السوربون، قال لي: يا عمر أنت تدرس في ألمانيا فتدفع أقساطا مدرسية، وتنفق على معيشتك، فتعال إلينا ستتعلم مجانا، وسنعطيك منحة، ثم إذا رجعت إلى بيروت وجدت منصبا ينتظرك.

ويعقب الدكتور فروخ على هذا بقوله: ليس من الضروري أن أذكر الآن ردي على تلك الإهانة، ولكني أريد أن أقول: أنا أعرف أشخاصا درسوا في فرنسا وفي غـــير فرنسا، ثم لما عادوا إلى بيروت وإلى غير بيروت وجدوا مناصب تنتظرهم قد فعلوا ما عجز المستشرقون و المنصرون عن تنفيذه، وزادوا في الشر على ما كان المستشرقون والمنصرون يريدونه[20].

ولا جـــدال في أن تلاميذ المستشرقين، سواء منهم من درس عليهم، أو قرأ لهـــم، و لم تكـــن لديهم حصانة فكرية إسلامية تحمي من الانبهار بفكر الاستشراق وترسم خطاه على نحو مرضي يعكس عقدة النقص والإحساس باستعلاء الغرب في كـــل شـــيء حتى فيما يخص التراث الإسلامي ـــ هؤلاء التلاميذ وما أكثرهم في مـــيادين التربـــية والإعلام والثقافة ـــ يقومون بأكثر مما يقوم به الاستشراق، فهم يندفعون في حماس لإذاعة أفكار المستشرقين وآرائهم في ديننا ولغتنا وتاريخنا، ولأنهم مـــن بني جلدتنا لا يلقون مقاومة ممن ينشرون بينهم هذه الأفكار، لضعفهم العلمي من جهة، ولأنهم يثقفون في هؤلاء التلاميذ من جهة أخرى، ولا يخطر ببال أحدهم أنهـــم يرددون أفكارا تحمل السموم وتفتك بالقيم، وربما كان بعض من ينشر فكر الاستشـــراق حسن النية ويظن أن سبيل التخلص من التخلف هو أن نسلك طريق هـــؤلاء الأقويـــاء حتى نصير لهم أندادا ونسترد منهم ما سلبوه في غفلة من ضعفنا وركود ريحنا.

فالفكر الاستشراقي إذن لم يوجه الفكر الإسلامي للمنهج في الدراسة، لأن ذلك الفكر لم يحترم هذا المنهج إلا بقدر ما يكفل له بلوغ مآربه، ثم إنه إلى جانب هذا شغل الفكر الإسلامي بما لا يرتد عليه بجدوى، لقد دفع به إلى متاهات نظرية، وبلـــبلة فكرية، وصراعات عقلية امتصت كل الجهود غالبا، وحالت دون توجهها الوجهة النافعة، ولا فرق في هذا بين فكر استشراقي أشاد بأمجاد المسلمين وإسهامهم الرائع في التقدم الإنساني وفكر تنقص من تاريخنا الحضاري، ونعتنا بالسلبية والغيبية واجترار ما أبدعه الآخرون، يقول مالك بن نبي: وهكذا يبقى الضمير الإسلامي في دوامـــة صـــراعه الباطن يسكنه أحيانا ما يكتب المادحون، ويثيره أحيانا أخرى ما ينـــتجه المفندون، وقد استمر هذا الصراع منذ قرن في حلقة مغلقة مستهلكا أجدى

الطاقات الفكرية في العالم الإسلامي من دون جدوى، ودون أي تأثير حقيقي على تطور العقلية الإسلامية.[21]

ثم يقـــول: وبالتالي يتبين لنا أن الإنتاج الاستشراقي بكلا نوعيه كان شرا على المجتمع الإسلامي، لأنه ركب في تطوره العقلي عقدة حرمان سواء في صورة المديـــح والإطـــراء التي حولت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر، وأغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضينا، أو في صورة التفنيذ والإقلال من شأننا بحيث صيرتنا حماة الضيم عن مجتمع منهار، مجتمع ما بعد الموحدين بينما كان من واجبنا أن نقف منه عن بصيرة ودون هوادة لا نراعي في كل ذلك سوى مراعاة الحقيقة الإسلامية غير المستسلمة لأي ظرف في التاريخ دون أن نسلم لغيرنا حق الاصداع بها والدفاع عنها لحاجة في نفس يعقوب.[22]

وبعـــد تفنـــيد دعاوى الذين يمجدون الفكر الاستشراقي، ويحكمون على منهجه في دراسة ديننا وحضارتنا بالعلمية، وأن ما يصدر عنه يعد القول الفصل أو نهاية النهاية في معالجة الموضوع[23]، وأن جهده في نشر التراث الإسلامي جهد فائق كـــان له أكبر الأثر في نهضتنا المعاصرة ـــ بعد هذا ـــ أشير إلى أن الذين يرفضون هـــذا الفكـــر كما أومأت سابقا يربطون بين كل نشاطه، وعوامل نشأته وتاريخه، وعلاقـــته الحميمة برجال الكنيسة ورجال السياسة وقادة الاستعمار، ويؤكدون أن كـــل جيل من المستشرقين يسير على درب الجيل السابق عليه، ويتخذ من مؤلفاته عمدتـــه في البحـــث، ومصادره الأولى في الدراسة، فلا غرو أن ظلت الروح التي كانت من وراء الاهتمام بدراسة الإسلام، والتعرف على مناط قوته من قبل الغربيين منذ عبر المسلمون مضيق جبل طارق وفتحوا أجزاء من أوروبا ـــ لا غرو أن ظلت هـــذه الروح مهيمنة على الفكر الاستشراقي حتى العصر الحاضر، وكان الاحتلال

الغربي للعالم الإسلامي من أهم العوامل التي دفعت بالمستشرقين و المنصرين لمضاعفة جهدهـــم في غزل المجتمع الإسلامي عن دينه فكرا وسلوكا وتطبيقا، فكانت تلك الدراسات الاستشراقية الجمة التي لم تدع جانبا من جوانب ثقافتنا إلا أدلت بدلوها فـــيه، والـــتي أريـــد بهذه الدراسات أن تكون البديل الثقافي للأمة تعتمدها في كل قضـــاياها العقدية والتاريخية والفكرية حتى تنقطع روابط الصلة الروحية، والنفسية، والعقلـــية بتراثنا، وننساه رويدا رويدا، وينتهي الحال إلى أن نصير دون ذاتية وهوية لها قسماتها الفريدة وقيمها الحضارية الخالدة.

ولا يســـمح المجال بتفصيل القول في هذا، وأجتزيء بذكر طرف من آراء الذين لا يرون للفكر الاستشراقي حسنة ما، وأنه بلاء على الأمة، يقول محمد أسد وهو نمساوي هداه الله إلى الإسلام، وخبر ما كتبه المستشرقون عن كثب : "تواجهنا صـــورة مشـــوهة للإسلام وللأمور الإسلامية في جميع ما كتب مستشرقو أوروبا، ولـــيس ذلـــك قاصـــرا على بلد دون آخر، إنك تجده في إنجلترا وألمانيا، في روسيا وفرنســـا وفي إيطالـــيا وهولندا، وبكلمة واحدة في كل صقع يتجه المستشرقون فيه بأبصارهم نحو الإسلام، ويظهر أنهم ينتشون بشيء من السرور الخبيث حينما تعرض لهم فرصة ـــ حقيقية أو خيالية ـــ ينالون بها من الإسلام عن طريق النقد"[24].

ويذهـــب الدكتور/ حسين الهراوي ، إلى أن الكتاب الأوروبيين يصورون الإســـلام بصورة بشعة غربية لا تكاد تقرأها حتى يقشعر بدنك من هول ما تقرأ، وأرجع هذه الصورة البشعة في كتابات الأوروبيين إلى المصادر التي اعتمدوا عليها في إبداء آرائهم وهي كلها مصادر إستشراقية فالاستشراق لا عمل له إلا مقاومة الروح الإســـلامية، وإضعافها أو إماتتها بوسائل مختلفة، وذكر أنه حين زار أوروبا وجرى بيـــنه وبـــين الـــناس حديث عن الإسلام أدرك أن الأوروبيين يربون على كراهية

الإســـلام، واحتقار الشعوب الإسلامية حتى لا يعطفون عليها أو يختلطون بها، وأن الفكر الاستشراقي هو منهج هذه التربية الفاسدة. وختم رأيه في المستشرقين بقوله: "إنهـــم ليسوا من العلم ولا من الأمانة كما يتصورهم الناس، وإنهم ممن لا يوثق بهم في البحث العلمي"[25].

وأما الفئة الثالثة من الباحثين التي وقفت موقفا وسطا فهي من جانب أيدت الذيـــن حكموا على الاستشراق بالعدوانية وفيما أوردوه من سلبياته، ولكنهم من جانب آخر، وافقوا الذين مدحوا الاستشراق وأثنوا عليه، لما قام به من نشر للتراث الإســـلامي، ودعت إلى الأخذ بالنتائج الإيجابية وإلى تقويم أعمال المستشرقين وفق الأســـلوب العلمي المنهجي، والابتعاد عن التعصب والانفعال، كما دعوا في مقابل ذلـــك إلى عـــدم امـــتداح هـــذه الأعمال وعدم اعتبارها المثل الأعلى دون تقويم علمي[26].

وبعـــض هـــذه الفـــئة يحكمـــون على الفكر الاستشراقي، وفقا لتصنيف المستشـــرقين والـــتفريق بين المنصفين منهم وغير المنصفين، وأن المسؤولية ا لعلمية تقتضي عدم أخذ الصالح بالطالح، والمحسن بالسيء.

ذكـــر العلامـــة أبـــو الحســـن علي الحسني الندوي في بحثه عن الإسلام والمستشـــرقين أنـــه إذا كـــان لا بد من نقد وتقييم لعمل علمي أو تحقيق لباحث، والاختلاف عنه أو نفضه وتزييفه، أو تبيين الخطأ فيه، فليكن ذلك في أسلوب علمي ونقد نزيه، وبنسبة عادلة معقولة، ثم قال: "لذلك أعترف بكل وضوح وصراحة أن عـــددا من المستشرقين كرسوا حياتهم وطاقاتهم على دراسة العلوم الإسلامية، وتبنوا موضوع الشرقيات والإسلاميات بدون تأثير عوامل سياسية واقتصادية أو دينية، بل لمجـــرد ذوقهـــم وشـــغفهم بالعلم، وبذلوا فيه جهودا ضخمة ويكون من المكابرة

والتقصير أن لا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها، وبفضل جهودهم برز كثير من نـــوادر العـــلم والمعـــارف التي لم تر ضوء الشمس منذ قرون إلى النشر والإذاعة، وأصـــبحت مصـــونة من الورثة الجاهلين وعاهة الأرضة، وكم من مصادر علمية ووثـــائق تاريخـــية لها مكانتها وقيمتها صدرت لأول مرة بفضل جهودهم وهمتهم، وقرت بها عيون العلماء في الشرق"[27].

وبعـــد أن سرد الأستاذ الندوي بعض الأسماء التي امتدح جهدها العلمي، ونشاطها الفكري قال: "ورغم هذا الاعتراف بفضلهم لا يمنعني شيء من أن أصرح بـــأن طائفة كبيرة من المستشرقين كان دأبها البحث عن مواضع الضعف في الشريعة الإسلامية والحضارة والتاريخ الإسلامي، وإبرازها لأجل غاية سياسية أو دينية.

وأومأ بعد هذا إلى أهم ملامح الاستراتيجية الاستشراقية الدقيقة، أو منهج الاستشـــراق في تشـــويه صـــورة الإسلام وحضارته، قالب: ومن دأب كثير من المستشرقين أنهم يعينون لهم غاية ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق، ثم يقومـــون لهـــا بجمـــع معلومات ـــ من كل رطب ويابس ـــ ليس لها أية علاقة بالموضوع سواء من كتب الديانة والتاريخ أو الأدب والشعر أو الرواية والقصص أو المجـــون والفكاهـــة. وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها، ويقدمونها بعد التموية بكل جراءة، ويبنون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم.

وكـــثير من هؤلاء المستشرقين يدسون في كتابهم مقدارا خاصا من "السم" يحترسون في ذلك، فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم حتى لا يستوحش القارئ ولا يثير ذلك فيه الحذر، ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف.

وقـــرر الـــندوي أن كـــتابات هؤلاء أشد خطرا على القارئ من كتابات المؤلفـــين الذيـــن يكاشفون العداء، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء ، ويصعب

عـــلى رجـــل متوسط في عقليته أن يخرج منها، أو ينتهي في قراءتها دون الخضوع لها[28].

فالعلامـــة الـــندوي لم يعمـــم في حكمه على المستشرقين فاعترف بفضل بعضـــهم وبين أن أكثرهم لا يعرفون الموضوعية فيما يكتبون، وأن لهم أساليبهم التي تدمغ فكرهم بالنفاق العلمي والخداع البحثي. من حيث آرائهم ودرجة

وأمـــا الدكتور محمد غلاب فهو ينظر إلى المستشرقين نظرة تاريخية ، فيرى أن الفكـــر الاستشراقي قبل القرن التاسع عشر كان أكثره صادرا عن المتعصبين من رجال الدين[29] وكان مبعثه في جلاء هو الرغبة في محاربة الإسلام، وتصيد المثالب المـــزعومة أو اقتناص الحجج المغالطة لتقديمها إلى المبشرين كي يستغلوها في جدلهم مع المسلمين. وهذا يعني أن ذلك الفكر لا يحتوي على كثير من الضبط أو النزاهة أو الحياد[30].

ولكـــن الفكر الاستشراقي في هذا القرن لم يعد كله على هذا النحو وإنما عـــرف فريقا لا يستهان به من أفذاذ علماء الغرب و مفكريه يكتبون عن الإسلام والمسلمين كتابه قيمة تشرف عقلياتهم وتسجل للإسلام عظمته وجلاله[31].

ويعـــزو الدكتور/ غلاب أخطاء الفكر الاستشراقي في العصر الحديث إلى التأويلات التي يحكمها الهوى أحيانا، ولأن المستشرقين يشتغلون ببحوث هي بعيدة كـــل البعد عن تربيتهم الخاصة وعقليتهم المتعارضة بطبيعة تكوينها مع موضوعات بحوثهـــم[32]. ولهذا يدعو المسلمين إلى عدم إساءة الظن بجميع المستشرقين من غير استثناء، فذلك في نظر الإسلام إثم كبير[33].

عـــلى أن هناك آراء متعددة لا تخرج في مضمونها عما جاء في بحث العلامة الـــندوي ، وكـــتاب الدكتور غلاب، ومن ثم آثرت الاجتزاء بما ذكرت ـــ فليس

المقام مقام استيعاب وحصر ــ لبيان وجهة نظر طائفة من الباحثين تقف من الفكر الاستشراقي موقفا لا يسرف في المدح والثناء ولا يزري به كل الإزراء.

ولا مــراء في أن التفاوت بين آراء الباحثين بالنسبة للفكر الاستشراقي لها أســبابها و مســوغاتها فالإنسان في كل ما يصدر عنه من رأي ونظر محكوم غالبا بثقافــته الخاصة، وظروف البيئة التي يعيش فيها، ومفهوم الثقافة هنا يشمل المبادئ والمفاهــيم والــتوجهات المذهبــية والاجتماعية والسلوكية، ولذلك رأيت إرجاء الحديــث عــن هــذه الأسباب حتى أعرض أولا لنشأة الفكر الاستشراقي وتطور مــراحله، فلــتاريخ هذا الفكر علاقة حميمة بتلك المواقف الثلاثة المتباينة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لعل ذلك ما يسترشد به في تحديد الموقف الذي يعول عليه من الفكر الاستشراقي.

ولست في هذه العجالة مؤرخا للاستشراق، وإنما هي نظرات سريعة تلقي بعــض الأضواء عليه، تتبع جذوره ومولده ونموه وآراءه ومصادر تمويله عبر رحلته التاريخية الطويلة.

والحقــيقة الــتي لا اخــتلاف عليها بين كل الباحثين من المسلمين وغير المســلمين أن الجــيل الأول من المستشرقين كان من القساوسة والرهبان، فقد راع الكنيســة بعد أن فتح المسلمون بعض أجزاء أوروبا ــ أن شباب الغرب ولى وجهه نحو الشرق ليلم بثقافة وعلوم المسلمين الذين أصبحوا مثلا أعلى للتقدم، وأصبحت حواضــرهم مــثابات للبحث والدرس، ومراكز للثقافة والفكر، لقد خافت على نفوذها وسلطانها من الذبول والأفول، فأوفدت عددا من رجال الدين النصراني إلى ديار الإسلام لدراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية رائدهم في هذه الدراسة تلمس الشــبهات، لــيقوموا بعــد عودتهم إلى ديارهم بتأليف الكتب المشحونة بالأحقاد

واخـــتلاف المثالـــب، وإثـــارة الحفائظ ضد الإسلام والمسلمين ، و كذلك قامت الكنيســـة بإنشاء المدارس العربية في روما و غيرها لإعداد أجيال من المتخصصين في الدراســـات الإســـلامية على نحو يؤهلهم لنشر كل ما يسيء إلى المسلمين ودينهم، حتى يفتر حماس الرغبة في الرحلة إليهم، وأخذ العلم عنهم.

وكـــان أولئك الرهبان والقساوسة الذين أوفدوا إلى ديار الإسلام، وهؤلاء الذيـــن تعلموا في المدارس الأوروبية وفقا للتخطيط الكنسي الذي كان يتغيا مقاومة المـــد الإســـلامي ـــ كان كل هؤلاء هم الطلائع الأولى للفكر الاستشراقي، وقد اتسمت مؤلفاتهم عن الإسلام بالجهل المتعمد به، والخلط الغريب بينه وبين غيره من الأديان، والرغبة المحمومة في مقاومة ما يمكن أن يكون لهذا الدين من تأثير، فمحمد ـــ صـــلى الله علـــيه وسلم ـــ فيما كتبه هؤلاء ساحر هدم الكنيسة في أفريقيا وفي الشـــرق عن طريق السحر والخديعة [34]، والمسلمون يعبدون ثلاثين إلها، والقرآن يمـــزج عـــلى غـــير نظـــام بـــين تعالـــيم العهدين القديم والجديد أو بين التوراة والإنجـــيل[35]...تلك الأفكار الفاسدة المستمدة من التخرص والأوهام وآراء العوام ولا علاقة لها بمصدر علمي، أو فكر موضوعي.

ومـــع مـــا اشـــتملت عليه كتابات الطلائع الأولى للفكر الاستشراقي من افتراءات، ومع ما بذلت الكنيسة من جهد في نشر تلك الكتابات والترويج لها بين الأوروبـــيين، و لم تـــبلغ غايـــتها، و لم تحـــل دون الهجرة الغربية إلى مراكز الثقافة الإســـلامية، بل إن اهتمام الأوروبيين بالفكر الإسلامي قد تضاعف، فهم يعكفون عـــلى دراســـته، وترجمة بعض آثاره، فاتجهت الكنيسة لإثارة العامة نحو المسلمين، وشـــد أزرها في ذلك بعض النبلاء والحكام الطامعين في كنوز الشرق و خيراته ، وأتـــاح التمزق الذي شهده العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري فرصة تحويل

تلـــك الإثارة إلى حملات مسلحة تعبر البحر المتوسط لمهاجمة المسلمين في الشرق، تحت ستار حماية الصليب ، و إنقاذ القبر المقدس – كما زعموا – من أيدي البرابرة المتوحشـــين، والكفـــار المغتصـــبين، أي المسلمين، كما كانت تعبر عنهم مواعظ الباباوات ورجال الدين النصارى[36].

ومكـــث الصليبيون في ديار الإسلام نحو مائتي عام، وعلى الرغم من أنهم عـــرفوا المســـلمين عن كثب وأدركوا مدى تفوقهم الخلقي والفكري والحضاري والاقتصـــادي[37] لم تـــتغير صـــورة الإسلام والمسلمين لدى الأوروبيين، وقررت الكنيسة مواجهة الإسلام على نطاق واسع فأكثرت من إنشاء المدارس والمعاهد التي تـــدرس العربية والعقيدة الإسلامية لإعداد منصرين يعملون على تنصير المسلمين أو تشكيكهم فيما هم به مؤمنون.

وبالإضافة إلى جهد الكنيسة في إعداد المستشرقين الذين لا يكتفون بتشويه صـــورة الإســـلام لـــدى الأوروبيين، وإنما يقومون أيضا بالتنصير بين المسلمين ـــ بالإضافة إلى هذا اهتمت دول أوروبا باللغة العربية، وإنشاء الكراسي العلمية الخاصة بها، كما قويت حركة نقل التراث العربي إلى الغرب، وتسابق أهله في الحصول على أكبر قدر منه، واشترك في هذا الحكام والمستشرقون وبعض الرحالة والمغامرين.

وأخفق التبشير في مهمته، و لم يستطع أن يدخل في النصرانية مسلما واحدا وزعـــم بعـــض المستشرقين أن المسلمين قست قلوبهم واستهانوا (بالكتاب المقدس) وتعلقوا بسلسلة أكاذيب القرآن[38] وليس في القرآن أكاذيب، كبرت كلمة تخرج مـــن أفـــواه هؤلاء الأفاكين، والمسلمون ليسوا قساة القلوب فهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، وهم يؤمنون بكل الكتب السماوية، ولا يستهينون بها.

وإذا كـــان المتنصـــير قـــد أخفق في مهمته فإنه أدى إلى التوسع في دراسة الإســـلام وانتشار لغة القرآن، وترجمة بعض المؤلفات الإسلامية إلى اللاتينية، ثم إلى بعض اللغات الأوروبية، وترجمة "الكتاب المقدس" إلى العربية، وترجمة معاني القرآن إلى أكـــثر من لغة أوروبية، وهي ترجمات مخافية ومشحونة بالأباطيل والأكاذيب، فقـــد كـــان كـــل من يترجم معاني الكتاب العزيز من الأوروبيين يشفع ترجمته بمقدمـــات و تذيـــيلات وبعض الحواشي في دحض هذا الكتاب، وذلك من قبيل الإعـــلان عـــن حسن إيمانه وصحة عقيدته، حتى يمكن أن تنشر ترجمته ، وترضى الكنيسة عنه[39].

وفي القرن السادس عشر الميلادي تجرأ بعض الأوروبيين فنشر طبعة للقرآن الكريم في نصها العربي وقد انزعج البابا في روما كل الانزعاج من طبع القرآن وأمر بجمـــع النســـخ المطـــبوعة كـــلها وحرقها، وأقام البابا لذلك احتفالا دينيا شهده شخصيا، ليظهر للعالم النصراني استنكاره البابوي[40].

لقـــد عرفـــت القرون الخمسة التي أعقبت الحروب الصليبية اتساع دائرة الاستشراق، وإقبال كل دول أوروبا على الدراسات الشرقية، وفي هذه الفترة دخل الـــيهود مجـــال هذه الدراسات[41]، وقدموا إلى الدول الأوروبية كل ما عرفوه عن المسلمين من مواطن الضعف والقوة، و فاقوا المستشرقين النصارى في إذاعة الأباطيل حول الفكر الإسلامي.

أمـــا لماذا لم تتغير صورة الإسلام والمسلمين في أذهان الأوروبيين بعد تلك الحـــروب على الرغم من كثرة نقل التراث الإسلامي إلى أوروبا وفهرسته ودراسته وتـــرجمة بعضـــه، وطبع قدر منه بالعربية، وعلى الرغم من احتكاك العالم الأوروبي

بالمسلمين في الأندلس وجزر البحر المتوسط وفي فترة الاستيطان الصليبي بالشام، وعلى الرغم من اتساع دائرة الاستشراق فإن ذلك يرجع إلى ما يلي:

أولا: ما قامت به الكنيسة من جهد منذ أن دخل الإسلام أوروبا، فإن ما أذاعته الأجيال الأولى من المستشرقين وكانوا جميعا من الرهبان والقساوسة ويعملون وفق تخطيط مدروس، لتنفير غير المسلمين من الإسلام كان له تأثيره النفسي على الأوروبيين، وتوجسهم خيفة من الإسلام والمسلمين، ويضاف إلى هذا ما تركته الهزيمة في الحروب الصليبية من آثار مرة عميقة في نفوس الأوروبيين وما خلفته في عقولهم من أفكار غربية عن العقيدة الإسلامية والمؤمنين بها.

ثانيا: ونجم عن هذا التأثير النفسي أن الأوروبيين في تعاملهم مع التراث الإسلامي وفي احتكاكهم بالمسلمين، لم يتجهوا نحو البحث عن الصورة الصحيحة للإسلام[42]. وإنما اتجهوا نحو الانتفاع بما حققه المسلمون في مجال العلوم الطبيعية من ابتكارات وانتصارات. إنهم لم يهتموا بالوقوف على مفاهيم الإسلام ودعائم مبادئه، بل إنهم كانوا يقفون من هذه الدعائم، وتلك المفاهيم موقف المتعصب لما درج عليه ويؤمن به، والذي يرى في عقائد الآخرين ضلالا مبينا، لأن جهد الكنيسة في تشويه الإسلام، والأساطير الشعبية التي نسجت خيوطها الأحقاد والأوهام حالت دون النظر إلى الإسلام والمسلمين بمنهج علمي وموضوعي يتغيا معرفة الحقيقة، وجعلت الأوروبيين لا يرون في الإسلام إلا دينا فاسدا وفي المسلمين إلا أمة همجية لا تحسن غير التدمير والتخريب، ولذلك كان كل من كتب عن الإسلام و المسلمين في تلك القرون الخمسة، يمثل الجهل المطبق بالإسلام كما يمثل السطحية والكراهية لهذا الدين، والخوف من قوته وسطوته، ومن هنا امتلأت كل الكتابات بالسخافات و الجهالات والضلالات[43] وعكست صورة منفرة للإسلام،

فهي لا تحكي غير الهرطقة[44] والوحشية والسلب والنهب ومن ثم اشتد الخوف من الإسلام وتواطأ الجميع على مناهضته واغتصاب أرضه وتوارثوا هذا جيلا بعد جيل حتى العصر الحاضر.

وإذا كـــان الاستشراق حتى القرن الثامن عشر الميلادي لم يستطع أن يغزو العقلية الإسلامية بما سطره من أضاليل، وإن كان قد نجح في اختراع الاتهامات ضد الإســـلام والمســـلمين، والترويج لها بين الأوروبيين فأورثهم بذلك حقدا على هذا الديـــن وأهلـــه، وتشـــويها لحقائقه وتاريخه حتى بين كبار المفكرين منهم، فمارتن لوثر ــ وهو من زعماء الإصلاح في عصر النهضة الأوروبية ــ ينتقد الإسلام انتقادا لادغـــا في مقدمة الترجمة اللاتينية لمعاني القرآن الكريم، والتي قام بها روبرت تشستر سنة 1543م[45].

إذا كـــان الاستشراق قد نجح في هذا فإنه منذ القرن الثامن عشر ــ فضلا عـــن اســـتمرار نشاطه في تشويه الإسلام بين الأوروبيين، ــ قام بدوره كاملا في خدمـــة السياســـة الإستعمارية، وبلبلة الأفكار بين المثقفين المسلمين حول كثير من قضـــايا عقـــيدتهم وتراثهم، وذلك أنه أصبح علما يطلق على كل الفروع التي تهتم بدراســـة الشـــعوب الشرقية من حيث دياناتها ولغاتها وآدابها، وأهم ما يلاحظ في تحديد مفهوم الاستشراق وفق النظرية الأوروبية التسوية بين ديانات وعادات العالم الشـــرقي، فهـــو لا يكاد يفرق بين العقيدة الإسلامية والديانة البوذية، وهذا خطأ نجمت عنه إساءة بالغة للإسلام وحضارته.

والاستشـــراق مع تحديد مفهومه وإدراجه في القواميس اللغوية[46] لم يعد مقصودا على دول أوروبا، فقد دخل ميدانه أمريكا وروسيا وبعض دول الشرق التي لا تديـــن بالإسلام، وقام بين المستشرقين في كل الأقطار تعاون منظم تمثل في إقامة

الجمعيات وعقد المؤتمرات، وإصدار الدوريات والموسوعات ووضع الفهارس على تنوعها، وقد ساعد هذا التعاون على ازدياد النشاط الاستشراقي واشتداد التنافس بين المستشرقين لتحقيق الآمال الغربية في الهيمنة على الشرق...ونهب ثرواته.

وإذا كان نقل التراث الإسلامي قد بدأ مع بدايات الفكر الاستشراقي فإن هذا النقل في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد ازداد، فالدول التي دخلت مجال الاستشراق جميعها سعت في حد للحصول على ما يمكن الحصول عليه من هذا التراث، ومن ثم ليس بدعا أن نجد الآن قدرا هائلا من تراثنا موزعا بين مكتبات العالم وهي ظاهرة لا يعرفها تراث أمة من الأمم غير الأمة الإسلامية، مما يؤكد على أن تراثنا ثروة حضارية انفردت بخصائص هي تعبير عن خصائص العقيدة التي جاءت رحمة للعالمين، ودعوة الله الخاتمة إلى الناس أجمعين. وكما تسابقت دول العالم في نقل التراث الإسلامي إليها في هذين القرنين، تسابقت أيضا في تحقيق وطبع بعضه، وترجمة عدد منه إلى اللغات الأوروبية.

وأما علاقة الاستشراق بالاستعمار منذ القرن الثامن عشر، فهي من الحقائق التاريخية التي لا ريب[47] فيها، لقد مهد الاستشراق للاستعمار، وكان عونا له في رسم سياسته واتخاذ مواقفه حتى الآن، فالمستر إيدن رئيس وزراء بريطانيا الأسبق لم يكن ليصنع قرارا سياسيا في شؤون الشرق الأوسط قبل أن يجتمع بأساتذته من المستشرقين في جامعة اكسفورد وكلية العلوم الشرقية[48]. وما كان يفعله إيدن كان يفعله غيره من القادة السياسيين والعسكريين في أوروبا وأمريكا وروسيا، وما يزالون يفعلون..

وللعلاقة الوثيقة بين الاستعمار والاستشراق من جهة، وبينه وبين الكنيسة من جهة أخرى استطاع الاستشراق في ظل الاحتلال أن يتغلغل في حياة المجتمع

الإســـلامي، وأن تكون له الكلمة الفاعلة على نحو مباشر أو غير مباشر في مجالات كـــثيرة من أهمها التربية والثقافة، وأن يتعاون مع التبشير معاونة كاملة، وأن يكتب عـــن الإســـلام والمسلمين آلاف الدراسات التي لم تغادر جانبا من جوانب الفكر الإسلامي إلا عرضت له، وتحدث عنه.

ولكن هل ظل الفكر الاستشراقي يسير على نفس الدرب الذي سار عليه من قبل، أو أنه غير من مواقفه وأصبح يجنح إلى الموضوعية أو يغلب عليه الطابع العلمي الخالص ؟

إن المســـتقرئ للفكـــر الاستشـــراقي منذ نحو ثلاثة قرون يلحظ أن أهم منطلقاته ومفاهيمه العامة لا تكاد تختلف عما كان عليه هذا الفكر من قبل، فمازال الإســـلام في نظـــر جمهور المستشرقين ظاهرة جماهيرية مخيفة غير عقلانية، وأنه في زعمهـــم يسيطر على المؤمنين به بالشبوب الانفعالي، والأحقاد الجارفة وهم لذلك قتلة و خداعون، ويسعون لتخريب الغرب والوجود الصهيوني في فلسطين وهم إلى هذا لا يؤمنون بالتقدم، ولا يتصفون إلا بالفسق والغدر والخيانة والانحطاط[49].

وكـــان احـــتلال العـــالم الإسلامي من العوامل التي ساعدت على تصوير الإســـلام في صـــورة الدين الذي لا يصلح للحياة، وأن النصرانية بطبيعتها ملائمة للـــتقدم، لأن المستشرقين استغلوا ضعف المسلمين وركود ريحهم، و حكموا على دينهم من واقعهم، ورجحوا النصرانية عليه لرجحان أهلها في التطور والتقدم، لقد صـــورت النصـــرانية في الفكر الاستشراقي على أنها بطبيعتها ملائمة للتقدم، وقرن الإســـلام بالـــركود الثقافي والتخلف، وأصبح الهجوم على الإسلام أشد ما يكون، وبعثـــت حجج العصور الوسطى بعد أن أضيفت إليها زخارف عصرية، وصورت

الجماعـــات الدينية الإسلامية بصورة خاصة على أنها شبكة من التنظيمات الخطرة يغذيها حقد بربري حضاري[50].

ولا يتســـع المجـــال لذكر طرف من آراء المستشرقين المحدثين والمعاصرين، والتي تؤكد أن ما يردده الفكر الاستشراقي اليوم قد يختلف أحيانا من حيث الشكل عمـــا كـــان يـــردده هذا الفكر منذ نحو عشرة قرون، ولكنه لا يختلف من حيث المضمون وذلك لأن الاستشراق قام على زعم أن الإسلام من صنع محمد، فالإسلام ديـــن بشـــري، وعلى أن الرسول لفق من النصرانية واليهودية، وأنه حرف في نقله تعالـــيم هاتين الديانتين، إما لأنه لم يستطع فهمها ـــ كما يزعمون، وإما لأن نفسه لم تـــرتفع إلى مســـتوى عيسى حتى يتصوره على حقيقته، ولذلك أنكر محمد على عيسى أنه ابن الإله، وبالتالي أنكر التثليث وتشبث بالتوحيد وببشرية الرسول.

ومـــع قـــيام الاستشراق على هذا الزعم يختلف المستشرقون فيما بينهم في تصوير آرائهم، وفي تقرير شروحهم لمبادئ الإسلام، وأشدهم حدة وعاطفة وهوى جامحا، وَحيْدَةً عن أدب الكتابة، فضلا عن الأسلوب العلمي في الدراسة مستشرقو فرنسا، ومستشرقو الكاثوليكية على العموم في أوروبا وأمريكا[51] وهذا الموقف من الاستشـــراق يدمغـــه بعدم المنهجية والأمانة العلمية، فمن بدهيات المنهج أن يكون الباحـــث خـــالي الذهـــن بالنسبة للموضوع الذي يدرسه ويدع خطوات البحث تكشف عن الحقيقة التي تهدي إليها المادة العلمية والدراسة الموضوعية، فإذا لم يأخذ الباحـــث نفســـه بهـــذا، وكان له موقف مسبق لما يبحث فيه لم يكن باحثا بالمعنى العلمي لهذه الكلمة.

وبعـــد هذه اللمحات عن الفكر الاستشراقي عبر تاريخه، ومراحل تطوره يمكن القول بأن أخطر هذه المراحل هي المرحلة المعاصرة، وأنه على الرغم من كثرة

الأقسام والمراكز العلمية الغربية التي تدرس الحضارة الإسلامية واللغة العربية، وعلى الـــرغم من كثرة عدد الدارسين فيها من الأوروبيين والأمريكيين والروس لم يتخل الفكر الاستشراقي عن نزعتة العدوانية، وظلت الروح التي كانت من وراء نشأة هذا الفكـــر تقود خطاه حتى الآن، وليس أدل على ذلك مما تصدره المطابع كل يوم من دراسات ومؤلفات تنضح بالهجوم السافر أو الباطن على الإسلام والمسلمين، بل إن أجهـــزة الإعلام على اختلافها تحاول إلصاق كل النقائص البشرية بالمسلمين، وتبرز عيوبهم على أنها عيوب الإسلام، وأن تدهور المسلمين وتخلفهم جاء بسبب دينهم لا بسبب هجرهم له، و تكاد كل هذه الأجهزة تجمع على أن الإسلام تهديد للحضارة الغربية[52].

وكـــان مـــن أســـباب هيمنة التوجهات الكنسية على الفكر الاستشراقي المعاصـــر أن كل جيل من المستشرقين كان يعول في دراسته للإسلام على ما كتبه الجـــيل الســـابق عليه، وهذا باعتراف المستشرقين أنفسهم، فالدكتور اسطفان فيلد يقـــول عن كتاب نولدكه الخاص بالقرآن.. ومؤلف نولدكه هذا بنصه المنقح المزيد مـــازال أداة لابـــد منها لكل مستشرق يريد الانطلاق في الدراسات الشرقية[53]. ويقـــول مستشرق آخر عن تأثير ماسينيون ـــ وهو مستشرق فرنسي تألق نشاطه الاستشـــراقي فـــيما بين الحربين الأولى والثانية وكان بخدمته في الجيش والمخابرات الفرنســـية من أخطر المستشرقين الذين أساءوا إلى الإسلام في العصر الحديث، يقول عـــنه "إن المستشـــرقين الذيـــن يهتمون اليوم بالفكر العربي الإسلامي تأثروا جميعا بماســـينيون بطـــريقة أو بأخرى"[54]. ويعتمد مستشرق شهير كجيب في دراسته للـــتاريخ الإســـلامي عـــلى تســـعة عشـــر[1] مؤلفا أوربيا مهملا المصادر الأساسية الإسلامية[55].

وتعد دائرة المعارف الإسلامية المرجع الأساسي لفكر المستشرقين المعاصرين، فهي مستودع علمهم وخزانة معارفهم[56]. وقد حررها عدد من كبار المستشرقين، تحت رعاية عدة مجامع علمية غربية والتي تحوي بحوثها خلاصة ما توصل إليه الفكر الاستشراقي الحديث من نتائج وآراء في مختلف الموضوعات الإسلامية، وقد صدرت طبعتها الأولى بين سنتي 1913 و 1934م.

فإذا عرفنا أن هذه الدائرة قد ملئت بالأباطيل عن الإسلام وما يتعلق به فلا تخلو مادة من موادها من تضليل ودس للسم في الدسم أدركنا كيف يدرس المستشرقون المعاصرون الإسلام، ولماذا تصدر عنهم تلك الآراء التي تثبت أن الفكر الاستشراقي في عصر العلم امتداد لهذا الفكر في عصر الظلمات[57].

وفضلا عن المؤلفات الاستشراقية والتعويل عليها في دراسة الإسلام تدخل أيضا كتب الرحلات التي كتبها الرحالة النصارى المتجولون في الديار الإسلامية في باب المصادر التي يعتمدها الفكر الاستشراقي في تلك الدراسة. وكتب الرحلات هذه كتبت بأسلوب تهكمي وبروح قصصية إختراعية تغذي خيال الشعوب النصرانية الغربية والأمريكية، ولها أثرها السلبي في تصوير الإسلام والمسلمين[58].

وأما موقف الاستشراق من المؤلفات الإسلامية والمصادر الأصيلة فإنه موقف يتسم بالتشكيك فيما يتعارض مع ما أوردته المؤلفات الاستشراقية أو فيما استقر في ذهن المستشرق من آراء مسبقة، ويلتمس لها الدليل من الآراء الضعيفة أو المدخولة، و بخاصة في كتب المؤرخين المسلمين لينفي عن نفسه تهمة التحامل والتشويه، ولهذا دعا العلامة الندوي إلى وجوب استعراض المؤلفات الاستشراقية العلمية ومحاسبتها في ضوء الحقيقة والواقع حتى ينكشف الغطاء عن تلبيساتهم وأخطائهم في فهم النصوص و بيان المعنى ، و يبدو للناس ضعف مصادرهم التي

يعـــتمدون عليها وأخطاء النتائج التي يستنبطونها منها، ويطلعوا على ما يضمر كثير مـــنهم في نفوســـهم من عداء للإسلام، وما يكنونه من أغراض سياسية ودينية في خفايا دعوتهم، وكل ذلك مؤامرة على الإسلام والأمة الإسلامية يجب إحباطها[59].

فالاستشراق في منهجه لا يقوم على أصول علمية بقدر ما يقوم على أوهام وتصـــورات فاسدة، فهو منهج ينطلق من مسلمات يرفضها منطق البحث العلمي، وطوعـــا لهذه المسلمات لا يحتضن إلا المصادر التي تستجيب لتلك الأوهام، ويسعى في دأب وصبر لجمع كل غث وثمين يخدم أفكاره، دون نظر إلى مدى علاقة المصدر الذي ينقل عنه بالموضوع الذي يدرسه، فضلا عما يلجأ إليه من التلبيس والتخليط، وخيانة الأمانة العلمية.

وكـــان من وسائل التلبيس في المنهج الاستشراقي عدم الجمود عليه بصورة حرفية، وإنما كان يراعي ما يجد في العالم الإسلامي من تطورات فكرية فرضت على الاستشـــراق أن يعـــدل من طرائق تناوله للقضايا دون أن يجور ذلك على أهدافه ونصرة مبادئه، فكثير من الدراسات الاستشراقية المعاصرة قد تبدو من حيث الشكل أعمالا علمية، ولكن حين يغوص المرء تحت المظاهر السطحية من الحواشي المتعالمة، والمـــراجع المنســـقة يجـــد نفسه مضطرا لأن يواجه نذير الخطر في إلقاء القول على عواهـــنه و التخمين و إصدار الأحكام التي يشهد لها إلا القليل من الشواهد ، أولا يشـــهد لهـــا شـــاهد قـــوي على الإطلاق[60]. وجاء في بحث العلامة الندوي أن المستشـــرقين في أغلـــب الأحيان يذكرون عيبا واحدا ويجودون لتمكينه في النفوس بذكر عشرة محاسن ليست لها أهمية كبيرة[61].

ومادام المنهج الاستشراقي على هذا النحو من التمويه والخداع فإن صورة العصـــور الوســـطى للإسلام في الفكر الاستشراقي قد ظلت في جوهرها حتى الآن

دون تغـــيير، وإنمـــا نضـــت عـــنها الثياب القديمة لأجل أن تضع ثيابا أقرب إلى العصر[62].

ويـــلحق بهـــؤلاء الذين يلقون القول على عواهنه على الرغم من الشكلية المـــتعالمة في البحـــث طائفة من المستشرقين يعلنون في دراساتهم أنهم موضوعيون، ويحصـــرون عـــلى تقـــديم معلومات صحيحة وهؤلاء قد يذكرون بعض الجوانب الإيجابـــية المـــتعلقة بالإسلام وحضارته الإنسانية مما قد يعطي انطباعا لدى القارئ مســـلما أو غـــير مسلم بأن الباحث موضوعي، ولكن النظر الفاحص في دراسات هـــؤلاء يكشـــف عن كثير من الأغاليط والأوهام التي قد لا يتفطن إليها إلا قارئ حصيف، فيحملها من لا يحسن النظر محمل الصحة ويشيعها بين الناس وكأنها حق لا مرية فيه.

إن هـــؤلاء الذين تستروا تحت رداء العلمية والموضوعية[63] لا يختلفون في واقع الأمر عن غيرهم من المستشرقين الذين كتبوا عن الإسلام إلا في أنهم لم يظهروا تعصبهم ضد هذا الدين وعداءهم له بطريقة مكشوفة وحاولوا أن يقدموا آراءهم في صورة تجذب المسلم إليها وتصل إلى عقول الأوروبيين وكأنها حقيقة لا جدال فيها.

وأمـــا الذين يمدحون الإسلام من المستشرقين، ويشيدون بإسهام المسلمين في الحضـــارة فإن هؤلاء كما أسلفت يريدون لفت أبصار المسلمين عن مشكلاتهم الحـــادة التي تعوق نهضتهم وإلى العيش الخيالي في أبهة الماضي وأمجاده، وهم إلى هذا يقصـــدون بما يمجدوه خلق جو من الاطمئنان إلى نزاهة الفكر الاستشراقي، ومقابلة هـــذه المجاملـــة مـــن جانـــب المستشرقين بمجاملة مثلها من جانب المسلمين للقيم الغربية[64].

والذي لا يمكن إنكاره أو تجاهله أن مسيرة الاستشراق الطويلة والتي عرفت آلاف المستشرقين عرفت من بين هؤلاء من أبت عليه عقليته العلمية أن يقود تفكيره نزعات تنصيرية أو أطماع استعمارية، وحاول أن يكون موضوعيا، ويجهر بما يصل إليه من حقائق دون أن يعنيه شيء آخر، ومن هؤلاء من ارتضى الإسلام دينا، وأصبح يدافع عنه، ويهاجم الفكر الاستشراقي، ولكن كل هؤلاء الذين كانوا يتمتعون بقسط وافر من الشجاعة الأدبية، وصدقوا مع أنفسهم لم يكن لهم تأثير ذو بال، وكان صوتهم أشبه ما يكون بالهمس وسط المكاء و التصدية فلا يسمعه أحد وإذا سمعه لا يأبه له، أو يحتفل به، لأن الضجيج الذي ساد جو الاستشراق غطى على مثل تلك الهمسات، وجعل عامة الناس لا تطمئن إليها، بل ترى فيها مروقا من العقيدة الصحيحة إلى دين الشرق الملفق، ومن ثم لم تستطع أن تصد تيار الافتراء أو التشويه، وفضلا عن ذلك كان أصحاب هذا الصوت يلقون العنت والاضطهاد أو اللوم والعتاب في مجتمعاتهم، لأنهم تجاوزوا حدودا ما كان ينبغي عليهم أن يتجاوزوها[65].

لقد كانوا يحاربون في أعمالهم وأرزاقهم، ويحال بينهم وبين نشر آرائهم، ولذا كان بعضهم يلوذ بالصمت، لكي لا يموت[66] جوعا، ومنهم من كان يؤثر الرحيل عن بلده، عله يجد في موطن آخر الحرية والحياة المطمئنة.

ولأن الاستشراق نشأ أساسا لخدمة التنصير و لمقاومة المد الإسلامي بين غير المسلمين، ثم أضاف إلى هذا بعد الحروب الصليبية العمل على احتلال ديار المسلمين، والتخطيط لتمزيقهم سياسيا وفكريا، حتى لا تجتمع كلمتهم ولا تقوى دولتهم كانت الكنيسة والدولة معا ترعى الاستشراق وتغدق عليه الأموال، وفي

العصـــر الحاضر دخل مجال الإنفاق على الاستشراق شركات ومؤسسات من أجل خدمة مصالحها في العالم الإسلامي[67].

إن الاستشـــراق لم يكن ليعيش هذه الفترة الزمنية الطويلة والتي بلغت نحو ثلاثة عشر قرنا، وينشر آلاف الدراسات ويصدر الكثير من الحوليات، والتي مازال بعضـــها يصـــدر حتى الآن، ويحقق ويطبع من المخطوطات العربية قدرا لا بأس به، ويتعاون في إخراج الموسوعات والفهارس المتنوعة، ويعقد مؤتمراته الدولية والإقليمية لـــولا ذلك الإغداق المالي عليه، والذي أتاح له التفرغ للقيام بمهمته والتي لا تخرج في جملتها عن إضعاف فاعلية الإسلام وتقليص مجاله الحيوي، ليدور في فلك التعاليم النصرانية[68].

ولكن أليس للاستشراق مع هذا جانب إيجابي؟

لقد قال بعض المستشرقين في الإسلام كلمة حق بيد أن صوت هؤلاء ضاع وسط الضجيج الهائل الذي كان يريد نشر ضباب كثيف من الأباطيل تحول دون أن يصـــل نور الإسلام إلى الحيارى والتائهين في دياجير الحضارة المادية المعاصرة، وإذا كـــان بعض المستشرقين قد مجدوا الإسلام فإنهم قاموا بمهمة المخذر الذي ينقل المرء من واقعه ليحلم ويفخر بماضيه، وكفى بذلك قتلا للطاقات التي تدفع عجلة التقدم إلى الأمام.

ويـــبقى جمهور المستشرقين وهم إذا كانوا قد قدموا لنا بعض الخير والنفع والذي تمثل في التحقيق والنشر وإصدار الفهارس القرآنية والحديثية وغيرها فإن هذا الـــذي قدموه لم يكن مقصودا لهم ولا غاية من غاياتهم، فكيف لقوم ينكرون نبوة محمـــد ـــ صـــلى الله عليه وسلم ـــ ولا يعترفون بأن القرآن كتاب من عند الله، ويحكمون على الأحاديث النبوية بالوضع والاختلاق ـــ كيف لهم أن يجندوا جيشا

مـــن الباحـــثين لوضـــع الفهارس للمصدر الأول للدين الإسلامي، وكتابة آلاف الـــبحوث والدراســـات حول هذا الدين وعلمائه وتراثهم الفكري، ولا سيما تلك الدائرة التي يعيدون طبعها ويضيفون إليها.

ومـــا دامـــت الدراســـة التاريخـــية للاستشراق أثبتت أنه لم يدرس الإسلام وحضـــارته على هدى المنهج والموضوعية، وإنما نهضت دراسته على هدى النزعات الدينية والمصالح الاستعمارية، فلماذا اختلف الباحثون في الحكم على هذا الفكر؟

إن الاخـــتلاف بين الذين يذكرون للاستشراق بعض الحسنات والذين لا يرون له حسنة ما ليس اختلافا جوهريا، فالجميع متفقون على أن الجانب السلبي في الفكـــر الاستشـــراقي أغلـــب من الجانب الإيجابي، وأن هذا الجانب لم يكن هدفا مقصـــودا لهذا الفكر. ولكن الذين يرون أن الاستشراق أحسن أكثر مما أساء، وأن المغرضـــين مـــن المستشرقين فئة قليلة يحتاج رأيهم إلى تحليل وتعليل للوقوف على الأسباب التي كانت من وراء هذا الموقف.

إن هؤلاء الذين ساروا في ركاب الفكر الاستشراقي وروجوا له وأثنوا عليه هم في الغالب إما غير مسلمين، أو مسلمون لا يلمون بالثقافة الإسلامية وهؤلاء ـــ بعـــد اتصالنا بالحضارة الغربية في مستهل القرن الميلادي الحالي ـــ لم يجدوا أمامهم طريقا ممهدا للحديث عن تراثنا المبعثر في كتب قديمة غير منظمة تنظيما يتفق وتنظيم الكتب العلمية عند الغربيين إلا كتب المستشرقين، فاندفعوا إلى الاقتباس منها. وقد بهـــرهم ســـعة اطلاع المستشرقين وعلمهم فاعتقدوا أنهم لا يقولون إلا الحق، وأنهم فـــيما خالفوا فيه الحقائق المقررة عندنا ـــ أصح حكما وأصوب رأيا، لأنهم يسيرون وفق منهج علمي دقيق لا يحيدون عنه، ومن هنا نشأت الثقة ببحوث هؤلاء الغربيين والاعتماد على آرائهم[69].

فالإعجاب بالفكر الاستشراقي سواء كان الاتصال به عن طريق القراءة أو التلمذة للمستشرقين كان مبعثه فقدان الحصانة الفكرية الإسلامية. ثم الشعور بالنقص وعدم الثقة بأنفسنا، وإكبار هؤلاء الذين أفنوا أعمارهم في دراسة ثقافتنا وتتبع مصادرها في خزائن الكتب العامة، حتى استطاعوا بالدأب المتواصل أن ينظموا الحديث عنها تنظيما بهر الأبصار واستولى على الألباب[70]، ولأن هؤلاء الذين فتنوا بالفكر الاستشراقي ودافعوا عنه وتبنوا مقرراته قد اضطلع كثير منهم بالعمل في الجامعات ومراكز التوجيه الفكري والإعلامي في العالم الإسلامي فإنهم نشروا هذا الفكر في مؤلفاتهم ومحاضراتهم. ونشأت أجيال على أيديهم تؤمن بما يؤمنون به، ومن ثم اتسعت دائرة الآثار السلبية للفكر الاستشراقي في الفكر الإسلامي المعاصر.

والخلاصة أن الفكر الاستشراقي في جملته لم يكن علميا و لا خالصا لوجه الحق و الإنصاف للأسباب التالية: ـــ

أولا: رعاية الكنيسة له منذ بدأ وحتى الآن، ثم رعاية السياسة الاستعمارية له في العصر الحديث.

ثانيا: نهض بالفكر الاستشراقي في أول نشأته الرهبان والقساوسة وظل بعض هؤلاء يعملون في حقل هذا الفكر حتى العصر الحاضر ومن هنا لم يستطع الفكر الاستشراقي أن يتخلى ـــ في عصر العلم ـــ عن الأباطيل والسخافات التي كان يرددها في عصر الظلمات.

ثالثا: مجافاة المنهج العلمي بإهمال ملاحظة المبادئ الأولية له، وذلك لانطلاق الفكر الاستشراقي من الزعم ببشرية القرآن وعدم صدق محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ في نبوته.

رابعا: إهمـــال المصادر الإسلامية الأصلية، والاحتفاء بدراسات المستشرقين تلك الدراسات التي ملئت بالافتراءات التي تشوه الإسلام وتنفر من المسلمين.

خامسا: الـــتمويه والتلبيس في البحث بالتظاهر بالموضوعية والاستيعاب، ثم دس الســـم في الدسم، وفق أسلوب يوحيى بأن الفكر الاستشراقي يتسم بالجدة والدقة والصحة، وهو ليس كذلك في الواقع.

هـــذه أهـــم الأسباب التي حالت دون أن يكون الفكر الاستشراقي فكرا علمـــيا، أو إنســـانيا وما عرفه هذا الفكر على أيدي بعض المنصفين يعداستثناء أو شـــذوذا من القاعدة العامة، التي قادته في الماضي والحاضر، ومن هنا كان من أخطر آثار الفكر الاستشراقي على المستوى العالي والعالم الإسلامي ما يلي:

(أ) زرع الخـــوف مـــن الإسلام في نفوس اليهود والنصارى، مما كان سببا في توتر العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب، ويعبر عن هذا الخوف أجهزة الإعلام في كل يـــوم، فالإسلام في هذه الأجهزة يعرض بصورة مشوهة تسيء إليه أبلغ إساءة، مما يعمق في النفوس التوجس منه والحقد عليه، والرغبة في مناهضته ومقاومته.

(ب) إحـــداث الـــتمزق الفكري والصراع المذهبي بين المفكرين والمثقفين في العالم الإســـلامي فهؤلاء المفكرون لا يتفقون على كلمة سواء في قضايا أمتهم المصيرية، فمـــنهم مـــن أولع بالفكر الاستشراقي والثقافة الغربية فدعا إليهما وناوأ سواهما، ومـــنهم من رأى في هذه الثقافة وذلك الفكر خطرا على الذاتية الإسلامية فعاداهما، ومـــن ثم شـــهد هذا العالم منذ أكثر من نصف قرن اختلافات كثيرة، استهلكت طاقـــات أهـــل الرأي فيه دون جدوى. ومازالت هذه الاختلافات حتى الآن تشغل الأمة بما لا يعود عليها بطائل في دينها ودنياها[71].

وخلاصة القول: أن الفكر الاستشراقي لم يمارس البحث للوقوف على ما في الإســـلام مـــن حقائق، ولكنه زاوله كلون من ألوان الفكر التاريخي، وهو لظروف نشأته لا يبذل -عهدا لمعرفة الحقيقة، وإنما لإقامة الأدلة على صحة ما درج عليه من مبادئ وأفكار خاصة.

وهو اليوم وإن تغير عن بعض مواقفه بالأمس فإن هذا التغير يبدو في التخلي أحيانا عن الأكاذيب والنعوت الحادة للإسلام ونبيه، صلى الله عليه وسلم وليس ثمة تخل عن طعن الإسلام وتلمس مواطن للهجوم عليه منها[72].

الهوامش

1 – مصـــادر الدراسة الأدبية ليوسف أسعد داغر، جـــ2 ، ص 779، ط. بيروت، فقد ذكر أن للاستشراق خدمات جليلة للمدنيات الشرقية عامة وللثقافة العربية خاصة ، وأن أهم هذه الخدمات للثقافة العربية هي جمع المخطوطات وفهرستها، وخلق الوعي الثقافي واليقظة الفكرية ووصف أعمال المستشرقين بأنها كلها تتسم بالمنهجية وإن افتقر بعضها إلى الدقة.

2 – مجلة المجمع العلمي العربي، جـــ 10، مجلد 7، ص433 ــ 456.

3 – المس[1] – مجلة المجمع العلمي العربي، جـــ 10، مجلد 7، ص433 ــ 456.

تشرقون ، النجيب العقيقي ، جـــ 1 ، ص7 ، ط 3، دار المعارف ، القاهرة.

4 – المنتقى من دراسات المستشرقين، للدكتور صلاح الدين المنجد ، ط بيروت.

5 انظر: مقدمة الأدب الجاهلي ، للدكتور طه حسين ، مجلد 5، ص 18 ، الأعمال الكاملة ، ط. دار الكتاب اللبناني ، بيروت.

6 انظر: نفع المستشرقين أكثر من ضررهم، مجلة الهلال، العدد الثالث، عام 1933، ص 321.

7 – انظر: المصدر السابق. ص321.

8 – انظر: المستشرقون والتراث، للدكتور عبد العظيم الديب ، ص13 ، ط. دار الوفاء بالمنصورة.

9 – إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، لمالك بن نبي، ص9، ط. دار الإرشاد بيروت.

10 العرب والحضارة الأوروبية للأستاذ عباس محمود العقاد ، ص25 ، ط. القاهرة.

11 مطالعات ، للأستاذ عباس محمود العقاد ، ص.93 ، ط. القاهرة .

12 المصدر السابق.

13 محاضرات في تاريخ العلوم عند العرب، للدكتور/فؤاد سزكين ، ص81 ، 84 ، ط. الرياض.

14-الإسلام والدعوات الهدامة، للأستاذ أنور الجندي، ص252، ط. القاهرة.

15 المصدر السابق، ص 251.

16 المستشرقون والتراث، ص27.

17-موقف العرب من المستعربين، للدكتور جحا، منشور في كتاب "الاستشراق" وهو من سلسلة كتب الثقافة المقارنة جـ1 ص 39، ط. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

18-المصدر السابق.

19-اخرفون للكلم عن مواضعه، للدكتور حسن المعايرجي، منشور في مجلة المسلم المعاصر، العدد 48 ص62.

20-المستشرقون ما لهم وما عليهم، للدكتور عمر فروخ، منشور في كتاب الاستشراق، سلسلة كتب الثقافة المقارنة، المصدر السابق، ص62.

21-إنتاج المستشرقين، ص24.

22-المصدر السابق، ص25.

23-الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا، للدكتور ميشال جحا، ص274 ط. معهد الإنماء العربي.

24-موقف العرب من المستعربين، المصدر السابق، ص32.

25-ضرر المستشرقين أكثر من نفعهم للدكتور حسين الهراوي ، منشور في مجلة الهلال، العدد الثالث، سنة 1933 ص321-324.

26-انظر: موقف المشارقة من المستشرقين للدكتور صبحي ناصر حسين، منشور في كتاب الاستشراق، سلسلة كتب الثقافة المقارنة، المصدر السابق، ص48.

27-ألقى هذا البحث في الندوة التي أقيمت عن الاستشراق ومواقفه من الإسلام في الربيع الآخر من عام 1402هـ الموافق لـ فبراير 1982م في بلدة أعظم كره بالهند.

28-انظر: الإسلام والمستشرقون للعلامة الندوي، ص13، 17، 19، 20 ط. ندوة العلماء، لكنهؤ، الهند.

29-نظرات استشراقية في الإسلام، للدكتور محمد غلاب ص8 القاهرة.

30-نظرات استشراقية في الإسلام، للدكتور محمد غلاب ص8، ط القاهرة.

31-المصدر السابق، ص15 .

32-المصدر السابق، ص21.

33-المصدر السابق، ص13.

34-تراث الإسلام، ترجمة الدكتور زهير السمهوري، تحقيق وتعليق الدكتور شاكر مصطفى، العدد الثامن من سلسلة عالم المعرفة ص 30، 38، الكويت.

35-نظرة الغرب إلى الإسلام في العصور الوسطى، ترجمة الدكتور علي فهمي خشيم والدكتور صلاح الدين السوري ص28 ط ليبيا.

36-تراث الإسلام، المرجع السابق، ص31.

37-فلسفة الاستشراق، للدكتور أحمد سمايلوفتش ، ص74، ط. دار المعارف، القاهرة.

38-نظرة الغرب إلى الإسلام في العصور الوسطى، المصدر السابق، ص120.

39-المحرفون للكلم عن مواضعه، المرجع السابق، ص62.

40-الغرب والإسلام للأستاذ عبد الرحمن صدقي، منشور في مجلة الهلال، عدد ديسمبر 1980م، ص110.

41-التبشير والاستشراق للمستشار محمد عزت الطهطاوي، ص107 ط. مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

42-تراث الإسلام، المصدر السابق، ص42.

43-المستشرقون والإسلام للأستاذ زكريا هاشم، ص301 ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، وصور إستشراقية ، للدكتور عبد الجليل شلبي، ص26، ط. مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

44-الهرطقة: الكفر أو الإلحاد.

45-تصور أوروبا الغربية للحضارة العربية، للأستاذ السندروبوزاني ، منشور في مجلة الآداب البيروتية، العدد4، 5، سنة 1983م ص 16.

46 تراث الإسلام، المصدر السابق، ص78.

47-الاستشراق، للدكتور إدوارد سعيد، ترجمة الدكتور كمال أبو ديب، ص74، 120، 121، 208، 221، ط. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.

48-التبشير والاستشراق، المصدر السابق، ص43.

49-الاستشراق، للدكتور إدوارد سعيد، ص308، 314، 318.

50-تراث الإسلام، المصدر السابق، ص84.

51-الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، للدكتور محمد البهي ص61 ط. القاهرة.

52-تغطية الإسلام، للدكتور إدوارد سعيد، ترجمة سميرة نعيم خوري، ص159 ط. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.

53-الدراسات العربية والإسلامية في بعض الدول الأوروبية، وهو مجموعة من المحاضرات لخمسة من المستشرقين المعاصرين، ألقيت على طلبة دبلوم الدراسات العربية الإسلامية عام 73/72 بجامعة بيروت العربية ص41 ط. بيروت.

54-المصدر السابق، ص58.

55-فلسفة الاستشراق، المصدر السابق، ص706.

56-"لمَ الاهتمام بالاستشراق؟" للدكتور شكري النجار، منشور في مجلة الفكر العربي، العدد 31، ص62.

57-الاستشراق والمستشرقون، للدكتور مصطفى السباعي، ص28، ط. المكتب الإسلامي.

58-الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ص63.

59-الإسلام والمستشرقون للعلامة الندوي، المصدر السابق، ص25.

60-المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، بقلم: طيباوي، ترجمة فتحي عثمان، ملحق بكتاب الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ص525.

61-الإسلام والمستشرقون، المصدر السابق، ص19

62-المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، المصدر السابق، ص533.

63-الإسلام في الفكر الغربي، للدكتور محمود زقزوق، ص52، ط. دار القلم.

64-الإسلام و الحضارة الغربية ، للدكتور محمد محمد حسين، ص108، ط. مؤسسة الرسالة.

65-التبشير والاستشراق، المصدر السابق، ص141.

66-الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص35، فقد أورد الزميل الدكتور زقزوق طرفا من حياة المستشرق الألماني رايسكه ت:1774م وكيف جر عليه موقفه الإيجابي من الإسلام ويلات كثيرة، وعاش طول حياته في ضائقة مالية بائسا، ومات مسلولا في الثامنة والخمسين من عمره.

67-الإسلام والحضارة الغربية، المصدر السابق، ص148.

68-انظر: حقيقة المواجهة، مقال للأستاذ فهمي هويدي، جريدة الشرق القطرية، 4 شعبان 1408هـ.

69-الاستشراق والمستشرقون للدكتور السباعي، ص62.

70-المصدر السابق، ص63.

71-أتيح لي أن أشارك في ندوة بتونس سنة 1982م عن مقاومة الغزو الفكري الصهيوني، وكان ما ألقي في هذه الندوة من أبحاث وكلمات يمثل التناقض والاضطراب الفكري بين أبناء الأمة الواحدة، فقد كان المشاركون في هذه الندوة شيعا، وكل فرح بما يؤمن به، ويسعى جاهدا للدعوة إليه، ولذا ضاع فيها الهدف الأساسي، وأمست صراعا حول ما يؤمن به كل فريق ومن ثم لم تنجح في مهمتها، ولم تصل إلى تخطيط علمي لمقاومة الغزو الفكري الصهيوني.

72-صور استشراقية ، المصدر السابق، ص30.

المصادر والمراجع

1- أبو ديب (كمال أبو ديب، دكتور، مترجم)، الاستشراق، ط. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.

2-بن نبي (مالك بن نبي)، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، ط. دار الإرشاد بيروت.

3-البهي (محمد البهي، دكتور). الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، ط. القاهرة.1985م.

4-بوزاني (السندر بوزاني) تصور أوروبا الغربية للحضارة العربية، منشور في مجلة الآداب البيروتية، العدد 4، 5، سنة 1983م.

5-جحا (ميشال جحا، دكتور):

(أ) موقف العرب من المستعربين، منشور في كتاب الاستشراق، جـ 1، بغداد.

(ب) الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ط. معهد الإنماء العربي.

6-الجندي (أنور الجندي) الإسلام والدعوات الهدامة، ط. القاهرة.

7-الحسني (أبو الحسن علي الحسني الندوي) الإسلام والمستشرقون، ط. ندوة العلماء، الهند.

8-حسين (صبحي ناصر حسين، دكتور) موقف المشارقة من المستشرقين، منشور في كتاب الاستشراق، ج1، بغداد.

9-حسين (طه، دكتور) في الأدب الجاهلي الأعمال الكاملة، مجلد 5 بيروت.

10-حسين (محمد محمد حسين، دكتور)، الإسلام والحضارة الغربية، ط. مؤسسة الرسالة.

11-خشيم (علي فهمي خشيم، دكتور، مترجم) نظرة الغرب إلى الإسلام في العصور الوسطى، ط. ليبيا.

12-خوري (سميرة نعيم خوري، مترجمة) تغطية الإسلام، ط. مؤسسة الأبحاث العربية ببيروت.

13-الديب (عبد العظيم، دكتور) المستشرقون والتراث، ط. دار الوفاء بالمنصورة.

14-زقزوق (محمود حمدي زقزوق، دكتور:

(أ) الإسلام في الفكر العربي، ط. دار القلم، الكويت.

(ب) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، كتاب الأمة، قطر. 1989م.

15-السباعي (مصطفى السباعي، دكتور) الاستشراق والمستشرقون، ط. المكتب الإسلامي، دمشق.

16-سزكين (فؤاد سزكين ، دكتور) محاضرات في تاريخ العلوم عند العرب، ط. الرياض.
17-سمايلوفتش (أحمد سماسلوفتش ، دكتور) فلسفة الاستشراق ، ط. دار المعارف ، القاهرة.
18-السمهوري (زهير السمهوري، دكتور، مترجم)، تراث الإسلام ، العدد 8 من عالم المعرفة، الكويت.
19-السوري (صلاح الدين السوري، دكتور، مترجم)، نظرة الغرب إلى الإسلام في العصور الوسطى، ط. ليبيا.
20-شلبي (عبد الجليل شلبي ، دكتور) صور إستشراقية ، ط. مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.
21-صدقي (عبد الرحمن صدقي) الغرب والإسلام ، مجلة الهلال ، عدد ديسمبر 1980م.
22-الطهطاوي (محمد عزت الطهطاوي) التبشير والاستشراق ، ط. مجمع البحوث الإسلامية.
23-طيباوي (أ. ل. طيباوي) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ، ملحق بكتاب الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار.
24-العقاد (عباس محمود العقاد):
(أ) العرب والحضارة الأوروبية ، ط. القاهرة.
(ب) مطالعات ، ط. القاهرة.
25-العقيقي (نجيب العقيقي) المستشرقون، ط. دار المعارف، القاهرة.
26-غلاب (محمد غلاب، دكتور) نظرات إستشراقية في الإسلام ، ط. القاهرة.
27-فروخ (عمر فروخ ، دكتور) المستشرقون ما لهم وما عليهم ، منشور في كتاب الاستشراق، جـ1 ، بغداد.
28-مبارك (زكي مبارك، دكتور) نفع المستشرقين أكثر من ضررهم ، منشور في مجلة الهلال، العدد الثالث، سنة 1933م.
29-مجموعة من المستشرقين : الدراسات العربية و الإسلامية في بعض الدول الأوروبية ، ط. بيروت.
30-المعايرجي (حسن المعايرجي ، دكتور) ، المحرفون للكلم عن مواضعه ، مجلة المسلم المعاصر، العدد 48.
31-المنجد (صلاح الدين المنجد، دكتور)، المنتقى من دراسات المستشرقين ، ط. بيروت.
32-النجار (شكري النجار ، دكتور) ، لم الاهتمام بالاستشراق؟ منشور في كتاب الاستشراق . ج1 ، ط. بغداد .
33-هاشم (زكريا هاشم) ، المستشرقون و الإسلام ، ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة .
34-الهراوي (حسين الهراوي ، دكتور) ضرر المستشرقين أكثر من نفعهم ، منشور في مجلة الهلال، العدد الثالث – سنة 1933م .
35-هويدي (فهمي هويدي) ، حقيقة المواجهة ، مقال منشور بجريدة الشرق القطرية ، عدد 4 شعبان سنة 1358هـ.